التأثير الثقافي للسودان في إفريقيا:
الأدوات، التأثير والمستقبل

د. وليد الطيب

أستاذ مساعد بجامعة إفريقيا العالمية – السودان

اهتمت دراساتٌ كثيرة برصد الأثر الثقافي للسودان والسودانيين في القارة الإفريقية والإفريقيين بشكلٍ عام، فقد تناول كتاب (أربعة مؤثرات سودانية في فكر مالكوم إكس)[1]، للدكتور «محمد وقيع الله»، الأثر السوداني المفصلي في مسيرة أحد أهم الأسماء المسلمة بين الأفارقة الأمريكيين، وهو الشهيد مالكوم إكس، أو الحاج مالك الشباز، وهو الاسم الذي اختاره لنفسه بعد أن حسن إسلامه تأثراً بصديقه السوداني البروفيسور مالك بدري- رحمه الله.

(١) محمد وقيع الله، أربعة مؤثرات سودانية في فكر مالكوم إكس ومسيرته الدعوية، هيئة الأعمال الفكرية، السودان، ٢٠٠٦م.

وكذلك تناولت دراسة الدكتور والسفير «عبدالهادي الصديق» (السودان والأفريقانية)[1] التأثير الثقافي للمثقف السوداني البارز «الدوس محمد علي»- الذي ينحدر أسلافه من أسرة «دوسة» الشهيرة بدارفور- على «ماركوس غارفي» أحد رواد حركة عموم إفريقيا «بان أفريكانيزم»، وكذلك تناولت بعض الدراسات سيرة الإمام «ساتي ماجد» في الولايات المتحدة الأمريكية، كما رصدت دراساتٌ أخرى سيرة الشيخ «سوركتي» في شرق آسيا.

وتتناول هذه الدراسة موضوع التأثير الثقافي للسودان في إفريقيا، وتسعى لتقصّي نوعه وحجمه وأدواته، وتستشرف مستقبله، في ثلاثة محاور، بغرض تقديم نماذج للتأثير العلمي والثقافي للسودان في إفريقيا، المحور الأول مدخل تعريفي لمفهوم الثقافة، المحور الثاني يتناول الأثر الثقافي للإنسان السوداني في الأفارقة، بينما يخصص المحور الثالث لتجربة المؤسسات السودانية في إفريقيا.

المحور الأول: مدخل تعريفي لمفهوم الثقافة:

مفهوم الثقافة:

للثقافة تعريفاتٌ كثيرة، متباينة الأبعاد بحسب رؤية كلِّ باحثٍ في هذه الظاهرة الإنسانية، «بتأكيد معجم الدراسات الثقافية في مدخل Culture؛ فإنَّ هذا المصطلح أكثر المفاهيم تعقُّداً؛ لأنَّه لا يمثِّل وحدةً مستقلَّةً بذاتها، وإنَّما دالَّة متنقِّلة لتحديد حالات كثيرة من النشاط البشريِّ في ظروفٍ مختلفة. وتجاوزاً لذلك لاستعراض بعض التعريفات للثقافة؛ فلعلَّ أشهَرَ تعريفات الثقافة وأكثرها دوراناً: ما أدلى به الباحث الأنثروبولوجي الشهير إدوارد تايلور (١٨٣٢-١٩١٧م)؛ إذ عرَّفها بأنَّها: «المجموع المركَّب الذي يشمل المعارف والمعتقدات، والفنون والقوانين، والأخلاق والعادات، وجميع الكفاءات والعادات التي يكتسبها الإنسانُ؛ بوصفه عضواً في المجتمع»[2].

ويمكننا تعريف الثقافة بأنها: «هي طريقة الحياة والتفكير المؤدي إلى سلوك وتصرف وعمل يتخذ نمطاً معيّناً خاصاً، ليس عشوائياً أو اعتباطياً بل يمكن تفسيره، غير أن ذلك لا يعني نمطية صارمة في السلوك، بل نمطية تأخذ في اعتبارها عوامل الحركة والدفع والتغير»[3].

وفي ضوء هذا التعريف؛ يمكن القول: بأن «طريقة الحياة والتفكير وصياغة السلوك على أساسها يشمل اللغة والتي هي وسيلة الفكر وأداته، ويشمل العقائد والعرف والتقاليد والموروثات التي ينبثق منها التفكير. وليس من شك أن الثقافة تختلف من عهدٍ لآخر نتيجةً لتفاعل عوامل مختلفة، على رأسها التعليم واكتساب الخبرة»[4].

وقد كان للمؤسسات التعليمية السودانية تأثيرها الثقافي الكبير في محيطها الإفريقي؛ كما سيتضح من خلال هذه الدراسة.

المحور الثاني: الأثر الثقافي للإنسان السوداني في الأفارقة:

في مقدمة كتابه الأشهر (شخصية مصر) يرى جمال حمدان أن أي محاولة لتقصّي شخصية الإقليم أو الدولة تصبّ في اتجاه دراسة خصائص المكان/الدولة، التي تمنحه تفرده وأصالته وقوته، وعبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة. يقرر حمدان أن هذه العملية تقتضي القيام ببناء نموذج مركب أو هيكل مركب يكشف عن «عبقرية المكان».

---

(١) عبد الهادي صديق، السودان والأفريقانية، مركز الدراسات الإستراتيجية، السودان، ١٩٩٧م.

(٢) الحركة الثقافية بغرب إفريقيا: نحو رصد لمكوناتها، وتأثيراتها وتياراتها - د. آدم بمبا، مجلة قراءات إفريقية، العدد ٣٦، أبريل ٢٠١٨م، ص١٠٠.

(٣) الصراع الثقافي في القرن الإفريقي، د. عبد الله نجيب محمد، الندوة الدولية للقرن الإفريقي، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٠٤٧.

(٤) المرجع السابق.

نشـأت علاقـات قوية بيـن السـودان ومحيطه الإفريقي، وقد «برزت هذه العلاقات منذ القرن السابع عشر، سمحت هذه العلاقات للسودان بالتأثير الفكري والثقافـي في هذا المحيط، سـاعد على هذا التأثير الهجرة لطلب العلم أو نشـره، وأعان على هذه الهجرة عدم وجود عوائـق طبيعية أو حواجز سياسـية تحدّ من حركة المهاجريـن، وكان ذيوع صيت عالم أو مركز علمي يغري طلاب العلم للسـفر للأخذ ممن ذاع صيته والاسـتفادة من علمه، ولعل شهرة معهد أم درمان بعد تأسيسـه كانت دافعاً لاجتذاب عـددٍ كبير من منطقة السودان الأوسط.

وغالباً ما تنشـأ عن الهجرة مصاهرات وعلاقات جديدة تؤسس لرباط اجتماعي، ولم تكن الهجرة لطلب العلم فقط بل كانت أحياناً للرباط الصوفي، والأخذ عن شيخ بعينه، وقد يعود السالك لبلده أو لا يعود.

أدت هذه الهجرة إلـى تغذية مراكز علمية عُرفت واشـتهرت، ومن أهـم هذه المراكز أبوحراز وأبشـي وكوكـو[1]، وكان الطلاب يشـدُّون إليها الرحال بعد أن عُرفت واكتسـبت ثقة علمية مرموقة. العلوم والمعارف فـي هذه المراكز تكاد تكون واحدة، بل والكتب العلمية تـكاد تكون ذاتها، لطبيعة المذهـب المالكي والعقيدة ونزعة التصوف الغالبة.

كان من النتائج المهمة للتأثير الثقافي هذه الوحدة الروحية والفكرية التي ربطت بين السـودان ومحيطها الإقليمـي، وما نتـج عن ذلك من علاقـات اجتماعية جديدة، إضافةً إلى بث الوعي والحفاظ على الشخصية بإرثها الفكري والروحي»[2].

(١) أبو حراز: مدينة تقع شرق مدينة ود مدني على الضفة الشرقية من النيل الأزرق بالسودان. وأبشي: مدينة تقع في الوسط الشرقي لجمهورية تشاد. وكوكو: مدينة تقع في نيجيريا في ولاية كبي. قراءات إفريقية.

(٢) تبادل التأثير الثقافي الإسلامي بين علماء السودان وعلماء حوض بحيرة تشاد – د. عبدالله حمدنا الله، المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» (٢٦-٢٧ نوفمبر ٢٠٠٦م)، الكتاب الثاني- ص٦٤، بتصرف بسيط.

وفـي هذا الإطار؛ تشـير الباحثة فـي جامعة أم درمان: ناهـد حـمزة، «في دراسـتها المسحية عن الاتصال الثقافي في إفريقيا، إلى أن ٧١٪ من الأفارقة ممن شاركوا في المسـح يرون أنه يوجد اشتراك بين بلدانهم والسـودان في العادات والتقاليد، وتتمثل هذه العادات في: مراسم الزواج- الأطعمة- الملابس- القيم الأخلاقيـة المتعلقة بالكرم والعفـو- خلاوي القرآن- الموسيقى- المناسـبات الدينية، وغيرها من العادات الاجتماعية»[3].

وسنتناول بالدرس والتحليل ثلاث ظواهر وآثارها: الأولى الحدود المنبسـطة والقبائل المشتركة، والثانية طريـق الحج عبر السـودان، الثالثة حركـة المعلمين السودانيين في إفريقيا.

أولاً: الحدود المنبسطة والقبائل المشتركة:

تجاور السودان سـبع دول إفريقية، وتتمتع دولتان منها بعضوية جامعة الدول العربية، وهما مصر وليبيا، أما الأخريات فهي: تشـاد، وإفريقيا الوسطى، وجنوب السـودان، وإثيوبيا، وإرتيريا. ولا يوجد حاجز طبيعي يفصل بين السودان وجيرانه بحيث يحول بين السودان وسـكانه والشـعوب من جيرانه من التواصل الإنساني والتثاقف الحضاري، بل إن موقع السـودان على ساحل البحر الأحمر من جهة، وعلى جنوبي الصحراء الكبرى من جهةٍ أخرى، منح السودان دوراً مفتاحياً في تواصل الشعوب الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى في الساحل الإفريقي مع دول الشرق العربي وما ورائها في الشرق الأدنى.

على طرفي هـذه الحدود السـائلة، أو على نحوٍ أدق في هذه الرقعة الجغرافية قبل الغزو الاسـتعماري الأوروبي، تنتشـر قبائل مسـلمة شـطَرَها الترسيم الاسـتعماري للحدود بيـن دولتين أو أكثـر، بغية أن

(٣) الاتصال الثقافي في إفريقيا، د. ناهد حمزة، مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالمية مركز البحوث والدراسات الإفريقية، العدد ٣٦ (٣١ ديسمبر ٢٠٠٦)، ص١٤.

تكون بذرةً للنزاع مستقبلاً بين هذه الدول المسلمة، ولكن عبقرية الشعوب المسلمة تعاملت مع الحدود بشكل مرن؛ تعترف بها سياسياً، ولكن تُلطّف قساوتها اجتماعياً بالزيجات المشتركة والتصاهر الاجتماعي، وأواصر العلم والتعليم، والتنافس في اكتساب المعارف، لهذا لمَّا تنقطع حركة الطلاب الشباب والعلماء في التنقل بين الخلاوي ومدارس العلوم.

يرى الدكتور «عبد الله حمدنا الله» أن العلاقة الجدلية بين سلطة وداي وسلطنة الفور في السودان، والتنافس الإيجابي في اجتذاب العلماء والأدباء وفي نشر العلوم، ساهم في تطور اللغة العربية في تشاد في القرن التاسع عشر، وخاصةً بعد ظهور مدينة «أبشة» (أبشي) في الوجود، ومدينة أبشة نفسها هي مدينة وظيفية بامتياز، فالعبقرية الاجتماعية السودانية في الغالب عمدت إلى صناعة مدينتين بالاسم نفسه في حدودها مع الأشقاء في دول الجوار، ولهذا نجد مدينة أبشة السودانية وأبشة التشادية، وعلى جانبي حدود السودان مع إفريقيا الوسطى نجد مدينتَي أم دافوق، وفي الشرق تشمخ مدينتا المتمة السودانية والمتمة الإثيوبية.

في هذا السياق؛ عملت سلطنة وداي على اجتذاب أحد وزراء سلطنة دارفور، ممن اشتهروا بالعلم والمعرفة والأدب، ليكون الوزير الأول (رئيس الوزراء) لسلطنة وداي[١].

وهذا التواصل الثقافي لم ينقطع بين السودان وجيرانه في دول إفريقيا جنوب الصحراء، وظل السودان على الدوام مهوى أفئدة الراغبين في حفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم الإسلامية، والعازمين على إجادة اللغة العربية. في هذا المساق؛ يشير المؤرخون إلى أن خلاوي «الشيخ صغيرون» بديار الشايقية قبل الاستعمار كان بها نحو ألف طالب من التكارنة، أي من قبائل غرب إفريقيا. وهذا العدد مهول جدّاً بحساب عدد سكان شمال السودان آنذاك، فالولاية الشمالية في يومنا هذا لا يتعدى عدد سكانها تسعمائة ألف نسمة. ولم تتوقف حركة الهجرة إلى المعاهد العلمية السودانية في أنحاء السودان الأخرى، فمدرسة الشيخ أرباب العقائد بالخرطوم بلغ عدد الطلاب الوافدين إليها من المنطقة الممتدة من دار برنو في غرب إفريقيا إلى دارفور بغرب السودان ألف طالب ونيف[٢]، و«يذكر البروفيسور عبد الله علي إبراهيم[٣] كيف أن خلاوي الشيخ الفادني بشمال الجزيرة قد ظلت قِبلةً لطلاب العلم من الأفارقة، وكيف أن المعهد العلمي بأم درمان في العام ١٩١٠م قد كان قِبلةً ومحجةً لجيل آخر من طلاب العلم الديني من إفريقيا»[٤].

ثانياً: طريق الحج.. السودان معراجاً:

تُمثّل شعيرة الحج للمسلمين من أهل القارة الإفريقية الحدث الأهم في حياتهم الدينية ومكانتهم الاجتماعية، فالحج رحلة سياحية طويلة، يجتاز الحاج فيها عدداً من الأقطار الإسلامية، ويتعرف على خَلق من الشعوب والأقوام، سواء في الطريق أو عند بلوغ الأراضي المقدسة، فيتعلم من هذه الرحلة الشيء الكثير من جغرافيا العالم الإسلامي، وعوائد الشعوب، وفرص الكسب والتجارة، ويكتسب من المعارف العلمية والعلوم الدينية القدر الذي يجعله متفوقاً على أقرانه في بلده الأصل. كما أن الحج يرفع المكانة الاجتماعية للحاج الإفريقي في مجتمعه المحلي، ويُسبغ عليه مكانةً

(١) عبدالله حمدنا الله، اللغة العربية في تشاد لغة إبداع، مجلة دراسات إفريقية، العدد ٢٥، السنة السادسة عشرة، ٢٠٠١م.

(٢) عبدالله حمدنا الله، تبادل التأثير الثقافي الإسلامي بين علماء السودان وعلماء حوض بحيرة تشاد، كتاب: مؤتمر الإسلام في إفريقيا، المجلد الخامس، جامعة إفريقيا العالمية- السودان، ٢٠٠٦م.

(٣) أكاديمي وأديب ومؤرخ سوداني، يعمل أستاذاً للتاريخ بجامعة ميسوري بالولايات المتحدة.

(٤) خالد عثمان الفيل، جامعة إفريقيا العالمية: «ما ينفع الناس» الذي مكث في أرض السودان من تجربة الإسلاميين، موقع النيلين، تاريخ النشر: ٢٠٢٣م/٠١/٢٨، على الرابط: https://www.alnilin.com/13303331.htm

روحيـــة ترفعه مكاناً عليّاً في السُّـــلّم الاجتماعي. ومن الطبيعي أن يسعى الحاج الإفريقي لأن يتأهل بالمعارف الدينيـــة اللائقة بهذه النعمة التي اصطفاه الله بها دون كثيـــرٍ من الناس، والقيام بواجبه الديني تجاه المجتمع؛ ولهذا «كان غالـــب الحجاج الأفارقة يتأخرون في رحلة الحـــج ولا يعودون إلا بعد قضاء مـــدة طويلة، يقضون بعضاً منها في مجاورة الحرميـــن، يتلقون فيها تعاليم الدين الإســـلامي في حلقات العلماء، وبعضاً من علوم الفقه وسيرة الرسول صلى الله وعليه وسلم، وشيئاً من التوحيد»[١].

في هذا الســـياق؛ يقوم السودان بدورٍ جوهري في عملية رفع المستوى العلمي والمعرفي للحجيج الإفريقي، الذين يتخذون من السودان معبراً أو معراجاً يرتفعون به إلى مقام الحـــج وصفة الحاج. يؤرخ نائب مدير جامعة الملك فيصل بتشاد البروفيسور محمد صالح أيوب أن «نفس الدور الذي يقوم به علماء الإسلام في الحرمين في إعداد الحجاج الأفارقة يقوم به العلماء في السودان الشرقي، حيث يتلقى الحجاج الأفارقة الذين يمرون به برّاً العديد من الدروس والعادات والتقاليد، خاصةً فيما يتعلق باكتســـاب اللغة العربية والدراســـات الإسلامية، وبرجوعهـــم إلـــى المناطق حول حوض تشـــاد يتولون التبشير والدعوة إلى الإسلام بلهجة وطريقة سودانية، يدعمهم في ذلك إخوانهم التجار، الذين وفدوا إلى هذه المناطق منذ فترة طويلة، وشـــكلوا جالية كبيرة، عُرفت في التاريخ باســـم «الجلابة»، فهم يعتبرون الحاج الذي يتحدث اللهجة الســـودانية ويدعو إلى الإســـلام جزءاً منهم ويحيطونه برعايتهم»[٢].

يحدّث خبير العلاقات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشـــؤون الإسلامية بقطر الدكتور الطاهر عمباج: أنه التقى بحاجٍّ في دولة توغو بالغرب الإفريقي حَجّ البيت الحرام في بداية خمسينيات القرن العشرين، وما يزال يحتفظ بجواز ســـفر ســـوداني كان وثيقـــة الحج التي مكنته من دخول الأراضي المقدسة، وذلك أن السلطات الســـعودية كانت لا تقبل من حجاج الغرب الإفريقي إلا وثائق الســـفر السودانية، وكان الســـودان يعطي وفود الرحمن وثيقة سفر مؤقتة لهذا الغاية المقدسة[٣].

ومن السودان، عَبْر هؤلاء الحجيج العابرين، حدَثَ تثاقفٌ بين الشـــعوب الإسلامية على طول طريق الحاج الإفريقـــي، على حواف هذا الطريـــق المبارك انتقلت كثيرٌ من الأفكار الإســـلامية والمشـــاريع الدعوية من الســـودان إلى إفريقيا، عَبْر هذا الطريق تعرفت الدول الإفريقيـــة المتاخمة للســـودان على أفـــكار الحركات الإســـلامية، وعلى الطرق الصوفية السودانية المنشأ، كالطريقة السمانية والطريقة الختمية والحركة المهدية السودانية.

وتُعدّ الطريقة السمانية، التي يتولى وظيفة الإرشاد فيها الشيخ السوداني محمد حسن قريب الله، من أكبر الطـــرق الصوفية هناك، حيث يصـــل أتباعها إلى ١٠ ملايين مريد[٤].

كما تنتشر الطريقة الختمية بقيادة الشيخ السوداني محمـــد عثمان الميرغني في إثيوبيـــا وإرتيريا، وكذلك تنتشر جماعة أنصار الســـنة المحمدية السودانية في إرتيريـــا وإثيوبيا بفضل جهود الشـــيخ الراحل محمد حسن عبدالقادر، والجهود الباكرة للشيخ محمد حسن التقلاوي.

ثالثاً: المعلمون السودانيون واستعراب إفريقيا:

تميز الســـودان بمكانةٍ من اللغـــة العربية وآدابها وطرق تدريسها، وسبق في ذلك كل دول إفريقيا جنوب

(١) نقلاً عن محمد صالح أيوب، دور رحلة الحج في التقارب بين قبائل غرب إفريقيا حول بحيرة شاد، كتاب مؤتمر طريق الحج في إفريقيا: الكتاب السابع، جامعة إفريقيا العالمية، السودان.

(٢) محمد صالح أيوب، دور رحلة الحج...، مرجع سابق.

(٣) مقابلة مع الباحث، ديسمبر ٢٠١٣م، الدوحة، قطر.

(٤) جريدة الدستور، تقرير: الآلاف يستقبلون شيخ الطريقة السمانية الصوفية بنيجيريا قريب الله كبرا، الخميس ٠٧/يونيو/٢٠١٨م، على الرابط: https://www.dostor.org/2201898

الصحراء، ومنه خرجت بعوث الأساتذة والمعلمين إلى شرق إفريقيا وغربها منذ خمسينيات القرن العشرين، ومن أولئك المعلمين الأستاذ الشيخ المحدث محمد الفاضل التقلاوي[١]، الذي انتُدب إلى إقليم إريتريا بالحبشة لتعليم اللغة العربية والدين.

كما انتشر المعلمون السودانيون في غرب إفريقيا، حيث لعبت أسرة الشيخ الطيب البشير دوراً كبيراً في التعليم في نيجيريا، وكذلك أسهم البروفيسور عبد الله الطيب المجذوب[٢] في تأسيس كلية بايرو بـ«كانو» (في نيجيريا)، وهي الآن جامعة مكتملة، وأدت هذه الجامعة لاحقاً أدواراً رائدة في نشر اللغة العربية، كما استطاع خريجو هذه المدرسة تأسيس أغلب أقسام اللغة العربية في الجامعات النيجيرية، وفي هذا الصدد يقول الدكتور قاسم إبراهيم[٣]:

أدت (هذه الجامعة) الأدوار الفعالة في تطور الدراسة العربية وآدابها في نيجيريا، حيث أنجبت عمالقة اللغة العربية، أمثال: البروفيسور إسحاق أوغنبيه، الذي لم يدرس هذه اللغة قط قبل التحاقه بجامعة إبادن، وعلى الرغم من ذلك نضج وبرع وألّف الكتب فيها، وكتب المقالات بها، وأشرف على البحوث الأكاديمية، وكان محباً لهذه اللغة مع كونه مسيحياً. والبروفيسور عبدالرزاق أبي بكر دريمي المحاضر الكبير في قسم اللغة العربية بجامعة إلون... وأمثالهم من عمالقة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا الذين أخرجتهم هذه الجامعة العريقة. ومن قسم اللغة العربية تخرجت دفعات كثيرة من الطلاب الذين شغلوا مناصب في مختلف مجالات الحياة، وأسهموا في بناء مجتمعاتهم، كما عملوا على نهضة وطنهم، فكان منهم مدرسون وأساتذة الكليات العليا والجامعات، وأئمة الجوامع وخطباؤها، وإداريون في الحقل التربوي والعام[٤].

في السياق نفسه؛ عمل عددٌ من الأساتذة السودانيين في أقسام اللغة العربية في جامعات غرب إفريقيا وشرقها، مثل الأستاذ الشاعر السوداني الشهير صلاح أحمد إبراهيم الذي عمل في جامعة أكرا بغانا في ستينيات القرن المنصرم، والدكتور علي السماني في جامعة أديس أبابا بإثيوبيا.. وغيرهم الكثير. كما انتدبت الحكومة السودانية المعلمين السودانيين للعمل في التعليم الثانوي والمتوسط والابتدائي في بعض الدول الإفريقية، في إطار البرتوكولات الثنائية مع عددٍ من الدول كالصومال وبورندي وغيرها.

بفضل كلية بايرو بـ«كانو» (في نيجيريا)، التي أسهم علّامة السودان عبد الله الطيب في تأسيسها وإطلاق قسم اللغة العربية بها، أصبحت هذه الجامعة لاحقاً مثالاً يُحتذى للجامعات النيجيرية في احتضان أقسام اللغة العربية بها، وفتح أبوابها للطلاب الراغبين في تعلّمها، سواء من المسلمين وغير المسلمين من أمثال عالم العربية النيجيري الكبير المسيحي الديانة البروفيسور إسحاق أوغنبيه. الآن يتجاوز عدد الجامعات النيجيرية التي بها أقسام اللغة العربية الأربعين جامعة من بين مائة وعشرين جامعة نيجيرية، أي هناك جامعة

(١) الشيخ محمد الفاضل الشريف التقلاوي، هو من أسرة تنتمي إلى آل البيت، وكان أول رئيس لجماعة أنصار السنة المحمدية بالسودان (١٩٣٩-١٩٤٨م)، ثم غادر السودان للعمل بأحد معاهد الحبشة، عمل سكرتيراً لرئيس الحزب الوطني الاتحادي السيد إسماعيل الأزهري أول رئيس وزراء للسودان، له عدد من المؤلفات؛ منها: العقيدة الركن الأول في الإسلام، الماسونية. توفي ١٤٣٠هـ.

(٢) الدكتور عبد الله الطيب، وُلد في الدامر بشمال السودان في ١٩٢١م، وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن ١٩٥١م، وألّف كتابه المرجعي (المرشد في أشعار العرب) في ١٩٥٢م، وعمل مديراً لجامعة الخرطوم وجامعة جوبا، وعمل بالتدريس في نيجيريا والمغرب، حصل على جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب عام ٢٠٠٠م، وتوفي العام ٢٠٠٣م.

(٣) قاسم إبراهيم، من إنجازات أساتذة قسم اللغة العربية بجامعة بايرو– كنو- في تطور اللغة العربية في نيجيريا، مجلة التنمية البشرية والتعليم للأبحاث التخصصية، (٣ع/مج٤)، ٢٠١٨م.

(٤) المرجع السابق.

تُدرّس العربية من كل ثلاث جامعات نيجيرية[1].

غير بعيدٍ من هذا؛ ما قام به الأساتذة السودانيون من أدوارٍ أخرى في حركة التأصيل للهوية العربية لبعض الدول الإفريقية، حيث انقطعوا سنوات يبحثون في تراث تلك الشعوب ليُخرجوا من بين فرثٍ ودمٍ الإرث الوطني المحلي المكتوب باللغة العربية، بلٍ عملوا على إدخال الأدب العربي المنتج محلياً في الجامعات الوطنية ليكون مادةً دراسية معتمدة، يزاحم الأدب الفرنسي والإنجليزي في كليات الآداب في الجامعات المحلية. ووجدت هذه الجهود العلمية التأصيلية صدىً طيباً بين الطلاب، وردّت الاعتبار لأدباء العربية في تلك الدول، كما صنعت قاعدة صلبة للتحولات السياسية والدستورية التي انتهت إلى اعتماد اللغة العربية لغةً رسمية بجانب اللغة الرسمية الأوروبية، التي فرضها الاستعمار على تلك الشعوب ولم تجد منها فكاكاً رغم ارتفاع راية الاستقلال منذ عقود؛ كما هو الحال في دولة تشاد.

بعد سنوات قليلة من إدخال «حمدنا الله» مناهج الأدب التشادي في الجامعات التشادية، وضمن عوامل أخرى، قررت الحكومة التشادية اعتماد اللغة العربية لغةً رسمية للدولة بجانب الفرنسية في ٣١ مارس ١٩٩٦م.

ولا شك في أن السودان قام بدورٍ محوري في تعزيز الهوية العربية في تشاد، كما أسهم مؤخراً في ظهور جيل جديد من أدباء الشعر العربي التشادي والأدب العربي، وخصوصاً في مجالات الرواية والسرد، تأثروا بالأدب السوداني بحكم الدراسة في السودان والحياة به[2].

المحور الثالث: التأثير المؤسسي السوداني في إفريقيا:

في هذا المحور نعرض تجربة مؤسستين سودانيتين، اتخذتا من إفريقيا ميداناً للعمل ومقصداً للنشاط العام، الأولى هي مؤسسة عُنيت منذ وقتٍ باكر بالتعليم، ومن ثمّ طورت نفسها جيلاً بعد جيل لتواكب تطور التعليم في العالم وحاجات إفريقيا المتجددة إليه. الثانية هي مؤسسة رائدة في العمل الإنساني الشامل، هذه المؤسسة لم تخصص إدارة صغيرة داخلها للتعليم أو الصحة مثلاً، بل أطلقت منظمات ومؤسسات ضخمة في كل جانب من جوانب العمل الإنساني؛ في الصحة والتعليم والتدريب والإغاثة ومشاريع كبرى في الاستثمار حتى تضمن استدامة المؤسسة. الأولى هي جامعة إفريقيا العالمية، والثانية هي منظمة الدعوة الإسلامية.

أولاً: جامعة إفريقيا العالمية:

بدأت بذرة هذه الجامعة الشامخة بتأسيس المعهد الإسلامي الإفريقي في ١٩٦٦م، الذي احتضن طلاباً أفارقة في المرحلتين المتوسطة والثانوية، ووقتها كان التعليم الابتدائي والثانوي عزيزاً في إفريقيا بل حتى في السودان نفسه، إذ إن تأسيس هذا المركز يتزامن مع تأسيس المدارس الكبرى في السودان، مثل مدرسة سنار الثانوية العليا (١٩٦٤م)، ومدرسة ود مدني الثانوية بنات (١٩٦٤م)، وبعد نحو عقدٍ واحد من تأسيس مدرسة خور طقت الشهيرة.

حققت هذه الانتباهة الباكرة للحكومة السودانية لأهمية التعليم في إفريقيا لحظةً مهمة ومساهمةً كبيرة في بناء علاقات نافعة مع إفريقيا، وإعداد جيل من الشباب المسلم المتعلم تعليماً حديثاً، ولهذا انتدبت لهذه المهمة سفيراً مرموقاً من وزارة الخارجية السودانية، درس في الغرب وخبرَ العالم، وهو السفير ياجي، ليتولى تأسيس المعهد الإسلامي وإدارته.

ثم بمبادرة من حكومة السودان، أطلقتها عام ١٩٧٢م، واستجابت لها بكل ترحاب ومحبة كلٌّ من المملكة العربية السعودية ومصر والكويت وليبيا وقطر

(١) قاسم إبراهيم، من إنجازات أساتذة قسم اللغة العربية بجامعة بايرو– كنو– في تطور اللغة العربية في نيجيريا، مجلة التنمية البشرية والتعليم للأبحاث التخصصية، (ع٣/ مج٤)، ٢٠١٨م.

(٢) المصدر السابق.

والإمارات والمملكة المغربية، تطور المعهد إلى المركز الإسلامي الإفريقي في العام ١٩٧٧م، وزاد الانفتاح على الطلاب الأفارقة، وأصبح المركز يجتذب طلاباً من مختلف الدول الإفريقية، واتساقاً مع زيادة معدلات الإقبال العالمي على التعليم العالي أخذ السودان زمام المبادرة مرّةً أخرى، وأعلن في العام ١٩٩١م إطلاق جامعة إفريقيا العالمية، لتتوسع كمّاً ونوعاً في أداء رسالتها، وتنتشر بركاتُها علماً ودعوةً في أصقاع إفريقيا.

منذ نشأتها التاريخية؛ تتميز الجامعة بأنها مؤسسة علمية عالمية مستقلة ذات طبيعة خاصة في رسالتها وأهدافها، وهي مؤسسة إسلامية تختار التوسط في منهجها والاعتدال في برامجها، ترتبط بالسودان عبر اتفاقية مقر، توفر للجامعة مساحة واسعة من الاستقلال وحرية البحث العلمي؛ حيث تتمتع بجميع الامتيازات والإعفاءات والحصانات الممنوحة للمنظمات الدولية؛ تمكيناً لها لأداء رسالتها على الوجه الأكمل[١].

بجانب هذه الإجراءات الإدارية الحكيمة؛ فإن المقر الممنوح للجامعة كان عبقرياً في إدماج الطلاب في المجتمع، جامعة إفريقيا العالمية ليست مكاناً معزولاً أو معسكراً منفياً من المدينة، بل تقع في قلب المدينة النابض، وتنفتح مجمعاتها على الشارع السوداني العريض، حيث يجد الطلاب أنفسهم في تفاعل عميق مع المجتمع السوداني، أفراداً وجماعات، يتعلمون منه ويتعلم المجتمع السوداني منهم، ويشاركون في الأنشطة الدعوية، درساً عند العلماء السودانيين، ومشاركةً في النشاط الدعوي العام من إمامة للمصلين في المساجد، ومشاركة في القوافل الدعوية التي تجوب السودان من أقصاه إلى أقصاه، يعيشون الأيام ذوات العدد في البيئات الدعوية القاسية حتى لا يستتكفوا عن العمل في البيئات الشبيهة في إفريقيا، وهذا النشاط إلزامي على كل طلاب الجامعة وطالباتها مهما كانت تخصصاتهم الدراسية.

الهدف من ذلك كله تحقيق رسالة الجامعة، والتي تلخيصها؛ «في كلمة واحدة هي (الدعوة)؛ وبما أنها مؤسسة علمية؛ فإن نشر الدعوة الإسلامية عبر العمل الأكاديمي هو رسالتها المركزية، وذلك بتخريج دعاة مؤمنين بعقيدتهم الإسلامية حق الإيمان، ممتلكين لناصية المهارات الدعوية اللازمة، مبدعين في مجالات تخصصاتهم العلمية والأكاديمية، محصّنين ضد كل محاولات الاستمالة التغريبية في دولهم، فاعلين في نشر الدعوة، والتبشير بها، والدفاع عنها»[٢].

استطاعت الجامعة منذ تأسيسها تخريج آلاف الدعاة، الذين تركوا بصمتهم الدعوية في القارة الإفريقية.

وتشير إحصائيات الجامعة للعام ٢٠٢٢م إلى أن نحو ٣٣ ألف طالب وطالبة قد تخرجوا في برنامج البكالوريوس في مختلف التخصصات، كما نال نحو ٧١٧ طالباً درجة الدكتوراه، ونحو ٤ آلاف طالب درجة الماجستير، وينحدر هؤلاء الخريجون من نحو ٩٩ جنسية، ولا يكاد يخلو قُطر من أقطار القارة الإفريقية من خريجي هذه الجامعة.

كما أن الجامعة حرصت على ألا تحصر التخصصات الدراسية في العلوم الشرعية فقط، بل وطّأت كل التخصصات الدراسية أمام الطلاب، من علوم الطب والصيدلة والهندسة والتربية، وغيرها من التخصصات المهمة للجيل الجديد من الشباب الإفريقي.

اليوم قد بلغ بعض خريجي الجامعة مناصب مرموقة في بلدانهم، فمنهم من هو الأستاذ الجامعي، بل يشتغل بعضهم في جامعات عالمية مرموقة كالدكتور أمباي بشيرلو، أستاذ الدراسات الإفريقية بجامعة ديوك إحدى الجامعات الكبرى في الولايات المتحدة، ومنهم الخبراء في البنوك المركزية الإفريقية، ومنهم

(١) موقع جامعة إفريقيا على شبكة الإنترنت.

(٢) موقع جامعة إفريقيا على شبكة الإنترنت.

الإعلامي البارز الذي يعمل في أبرز المنصات الإعلامية العالمية، ومنهم من اختار أن يكون رائد أعمال، وغيرها من المجالات.

في هذا السياق؛ لابد من الإشارة إلى الأدوار الكبرى التي قام بها خريجو جامعة إفريقيا والجامعات السودانية في إعادة بناء الدولة في الصومال، وهو باب يحتاج إلى أن تُفرد له دراسة مستقلة؛ إذ احتملت جامعة إفريقيا عبء التعليم العالي للطلاب الصوماليين بشكلٍ كبير في السنوات الأولى لانهيار الدولة في الصومال وإغلاق الجامعات هناك.

أختم هذا المبحث بإيراد شهادة الأستاذ خالد الفيل[1] عن عِظَم تأثير تجربة جامعة إفريقيا على الطلاب الأفارقة: «جامعة إفريقيا العالمية، مشروع يجسّد الكثير من الروح والحضارة السودانية التي ظلت متصلة بإفريقيا والعالم العربي والإسلامي كما كانت في مملكة سنار، وكيف أن هذا التداخل الحضاري الفريد... ومما زادني فخراً بهذه المؤسسة العريقة أن الله كتب لي أن أزور البلد الطيب والجارة الشقيقة تشاد خلال العام الماضي، وأن أقابل عدداً من أصحاب الشأن والفكر فيها، وما إن يعلم أحدهم أنني من السودان حتى ينقلب لسانه الأعجمي من الفرنسية إلى اللهجة العربية الشائعة عند أحبابنا في غرب السودان، ثم يحدثني عن أيام دراسته في جامعة إفريقيا العالمية، وكيف أنه ممتن لتلك الفترة، وممتن للمعرفة والتعليم الذي اكتسبه أثناء تواجده في الخرطوم وفي جامعة إفريقيا»[2].

ثانياً: منظمة الدعوة الإسلامية:

بعد سنوات من الإقامة في الولايات المتحدة الأمريكية، وترأس اتحاد الطلبة المسلمين لدورتين، عاد الدكتور التجاني أبو جديري إلى بلاده السودان، وهو يحمل خبرةً واسعة وأفقاً عالمياً كبيراً للعمل الدعوي، دعته إلى التعاون مع الدعاة السودانيين لإطلاق مشروع منظمة الدعوة الإسلامية في العام ١٩٨٠م، إن التجربة الأمريكية علّمت أبو جديري أن الدعوة المجردة التي لا تخاطب حاجات الإنسان من طعام وشراب وكساء ودواء وتعليم تظل قاصرة عن الاستجابة لحاجات الإنسان، سواء أكان مسلماً قديماً أو مهتدياً حديثاً، كما أن المجتمعات المسلمة التي ينهشها الجوع وينهكها المرض ويسودها الجهل لن تكون نموذجاً يهتدي به الآخرون ويقتدي به الراغبون وخاصة في قارة كإفريقيا، التي أقبلت المنظمات الكنسية إليها بأموال ضخمة وإمكانات مهولة[3].

اتخذت المنظمة من العاصمة السودانية الخرطوم مقراً لها، وتولى الدكتور التجاني أبو جديري منصب الأمين العام لها، فانطلقت المنظمة تقدّم خدماتها الإنسانية والتطوعية لعددٍ كبير من سكان إفريقيا.

في أبريل ١٩٨٤م تخطفت يد المنون القائد المؤسس، وبعد سنوات قليلة من ذلك التاريخ وجد أعضاء مجلس أمناء المنظمة في الرئيس السوداني الأسبق، المشير محمد حسن سوار الذهب (الذي تنحى عن الحكم طوعاً وزهداً فيه)، الرجل الذي يطلبونه وتطلبه مهام منظمة الدعوة في إفريقيا، فسرعان ما كبرت المنظمة وازدهرت، وانتشرت مكاتبها وبعثاتها في ٤١ دولة إفريقية.

ترتكز أهداف المنظمة على نشر الإسلام في الأوساط غير المسلمة، ودعم وإغاثة المحتاجين، وتشجيع المبادرات المحلية في التنمية والبناء. تلخص المنظمة أهدافها الإستراتيجية في «نشر الإسلام

(١) مهندس سوداني، ونال درجة الماجستير في الاقتصاد السياسي من مدرسة لندن للاقتصاد الشهيرة.

(٢) خالد عثمان الفيل، جامعة إفريقيا العالمية: «ما ينفع الناس» الذي مكث في أرض السودان من تجربة الإسلاميين، موقع النيلين، تاريخ النشر: ٢٠٢٣م/٠١/٢٨، على الرابط: https://www.alnilin.com/13303331.htm

(٣) وليد الطيب عبد القادر، التجاني أبو جديري: قبسات من سيرة رائد العمل الإسلامي في أمريكا، معهد مبارك قسم الله، السودان، ٢٠١٥م.

عقيدةً وشـــريعةً في أوســـاط غير المسلمين، وترشيد الجماعات المسلمة من أجل تنمية الشخصية المسلمة القـــادرة على فهم عقيدة التوحيد، والتعبير عن معانيها العميقة في الحياة الفرديـــة والاجتماعية»، إلى جانب نشـــر وترسيخ قيم التســـامح بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى. كما توضح منظمة الدعوة الإسلامية أن من أهدافها توجيه وتطوير الجماعات المسلمة وفقاً لتعاليم القرآن والســـنة باعتبارهما «معيارَين موحِّدَين للفكر والشعور والممارســـة الإسلامية»، ومن أهدافها كذلك المشـــاركة فـــي التنمية الاجتماعيـــة والرعاية الصحية للجماعات المسلمة[1].

قامت المنظمة فـــي الأعوام الأربعيـــن الماضية بجهود ضخمة عبر سلســـلة بعثاتها التعليمية المنتشرة في قارة إفريقيا، وأســـلم الملايين من الأفارقة على يد دعاتها في جنوب الســـودان وكينيا وأوغندا وغيرها من الـــدول الإفريقية، كما بذلت أعمـــالاً بارزة في الصحة ومشـــاريع تنمية المجتمعـــات الريفية، ولهذا ســـارع الرئيـــس الأوغندي يوري موســـيفني إلى دعوة منظمة الدعوة الإسلامية إلى نقل مقرها الرئيس إلى عاصمة بلاده (كمبالا)، عقب الإغـــلاق المؤقت لمقر المنظمة في الســـودان في ٢٠٢٠م عقب ســـقوط نظام الرئيس البشير في ٢٠١٩م، لما رأى من جميل أثرها في بلاده؛ وهو المسيحي الملتزم.

بجانب هذه الأدوار كانت المنظمة ترســـل الطلاب الفقـــراء والأيتام مـــن الدول الإفريقية إلى الســـودان ليدرسوا في المركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم، كما تتيح لهم فرصاً للالتحـــاق بالتعليم العالي عبر منحها الدراسية.

ختاماً: نظرة للمستقبل:

إن التأثير الثقافي للسودان في إفريقيا يتجاوز كونه مصلحة وطنية، تخص السياســـة الخارجية السودانية، إلى أن يكون رصيداً مهمّاً للدعوة الإســـلامية والثقافة العربية والإســـلامية في إفريقيا والعلاقـــات العربية الإفريقية، ولهذا فإن مســـتقبل هـــذا التأثير الثقافي رهينٌ بتكامل الأدوار للدول العربية التي انتبهت مؤخراً إلى القارة الإفريقية.

كذلك؛ فإن مســـتقبل التأثير الثقافي الســـوداني في إفريقيا يتصـــل بقيام الســـودان بواجبه في تأييد مطالب دول الجنوب الإفريقي بالانضمام لمؤسســـات العمل العربي المشترك، مثل تأييد مطالب بعض الدول الإفريقية كتشاد وجنوب الســـودان بالانضمام لجامعة الدول العربيـــة، وانضمام هذه الـــدول يقتضي الوفاء بشـــرط جعل اللغة العربية لغة رسمية في الدولة، وفي ذلك انتصار كبير لتيارات الثقافة العربية والإســـلامية في تلك الدول.

غير بعيدٍ من ذلك؛ أن استمرار هذا التأثير يقتضي المزاوجة بين الاقتصاد والثقافة/الدعوة، فإن تنشيط حركة التجارة البينية بين الســـودان والدول الإفريقية يصنع حراكاً سكانياً نشطاً بين البلدان، كما يتيح فرصاً أكبر للتقارب الإنساني والتبادل الثقافي.

ويؤدي التعليم دوراً محورياً في اســـتدامة التأثير الثقافي، وهنا لابد من تنسيق الجهود في فرص التعليم الموجه إلى إفريقيا والإفريقيين ومؤسساته، والالتفات الجاد إلـــى اتحاد الجامعات الإســـلامية في إفريقيا، وتعزيز قدرته في التنســـيق بين الجامعات الإســـلامية الناشئة في إفريقيا.

وكذلك تـــزداد الحاجة إلى أن تلتفـــت الجامعات السودانية والعربية إلى الطلاب الأفارقة، وأن تخصص لهـــم المنح الدراســـية فـــي مختلف ضـــروب العلوم والمعـــارف، فإفريقيا تحتاج إلى الطبيب المســـلم كما تحتاج إلى الداعية المسلم ■

(١) منظمة الدعوة الإسلامية، موسوعة الجزيرة، بتاريخ: ٢٠١٦/٦/١٦م، على الرابط: https://www.aljazeera.net/encyclopedia